عن الموارنة في لبنان

ميشال إده

النهار ٢٠٠١/٢/١٥

اولئك الأجداد الأجداد. الطاعنون في هذه الأرض، الراسخة في هذه الأعالي عند تخوم السماء. ألمن قلوبهم وسواعدهم تضاريس هذه الجغرافيا، ومن ايمانهم وأدمغتهم مآتي التاريخ وآفاقه.

اولئك الناسجون بعرقهم ودمائهم بيارق الحرية والكرامة والمعرفة، في مغامرة دائمة لا تُطوى أشرعتها ولا بيارقها.

اولئك الواقفون في أجفان المخاطر والردى على مر الدهر، كي لا يقعد، ولا يقع، الوطن الذي ساهموا بتكوينه وصوغ تكاوينه الفريدة.

اولئك الموارنة، يجدر بنا ان نلتفت اليوم الى استذكار سيرتهم والمغامرة، كي نتيقّن بأن الارث الماروني المسيحي، الديني والدنيوي، ما كان يوماً معطى ولا جوهراً جامداً مكتفياً بذاته. ولا فقط مجرد وجهة نظر خاصة او فريدة في تاريخ الخلاص، ولا ابداً مجرد كنيسة توهّمت الانزواء درباً الى الايمان، بل ادركت خلاصة الايمان وعزمه وعزيمته لأنها لم يفتها سر التجسّد.

حريّ بنا أن نستذكر ذلك التراث، ان نستلهم روحيته وجذوته الأعمق، وديناميةَ تلك القيم والمثل التي حرّكت هذه المغامرة المجتمعية، والوطنية، والانسانية، فجسّدتها تجربة حية من معينها نستعين على تدبّر الحاضر، واستقبال الآتي. فلا يكون التفاتنا الى الماضي إلاّ لنكون اكثر اندفاعاً، ودراية، في اتجاه الغد.

لقد تفتحت المارونية، منذ ١٦٠٠ سنة، ضمن بيئة رهبانية كانت في حينها الأول واسعة الانتشار في منطقة "افاميه" السورية. واشتهرت بتمسكها بعقيدة خلقيدونية تؤكد على كمال طبيعتي المسيح: الالهية والانسانية. ثم اتسعت، وتنقّلت تلك الجغرافية المارونية، في عهودها الأولى، بحسب تقرير المرسل اليسوي الأب يوحنا إليانو المرفوع الى قداس البابا غريغوريوس الثالث عشر عام ١٥٧٨، والذي يقول فيه حرفياً:

"الموارنة – هكذا يدعون – هم شعب ينتسبون لمصلحهم مارون، ويسكنون في مدن وجبل لبنان وقراه المواجهة للغرب، والمشرفة على طرابلس وبيروت، ومنهم عيال يسكنون دمشق وحلب، وطرابلس، وجزيرة قبرص... وهم إجمالاً لا يتجاوزون الأربعين ألفاً".

أول سؤال يتبادر الى الذهن بصورة تلقائية هو: كيف تسنّى لهؤلاء الموارنة، أن يصمدوا وأن يستمروا، منذ ١٦٠٠ سنة، رغم عددهم الضئيل؟

من خلال النبذة الموجزة جداً عن نشأة الموارنة، والتي أسلفت، اشير الى ان عنصراً أوّل من عناصر الجواب عن سؤالنا المركزي يكمن في الانتماء الماروني، منشأً وكنيسةً وجماعة، الى بيئته الشرقية الطبيعية، فالهوية الشرقية المارونية كانت في اساس تجذرها وديمومتها، رغم تعرّضها للاضطهاد من الحكام البيزنطيين واليعاقبة والبرادعة وسواهم.

في هذا السياق، هاجس الموارنة، في البدايات، لم يكن هاجس الانفصال او الاستقلال عن كنيسة انطاكية الرسمية بمقدار ما كان هاجسهم فعلاً هاجس المحافظة عليها من هيمنة دخيلة، بغاية المحافظة أصلاً على التراث واستمرارية الوجود.

لا يمكننا أن نرى الى ذلك الهاجس الماروني الذي ينمّ على نزعة جلية للتمسّك بالأصالة وعدم التفريط بها، إلاّ منطوياً كذلك على حرص الموارنة الشديد، عهد ذاك، على لغتهم وحضارتهم الآراميتين السريانيتين مخافة طغيان الهللينية أو غيرها، بما

يبدد الهوية والتنوع ويذيبهما. وربما يحق لنا أن نلاحظ مذذاك، انتباهاً مارونياً باكراً جداً الى فضيلة الانفتاح وارادة الحوار المتكافئ بديلاً خصباً حقيقياً من قوقعة سقيمة، ومن طغيان أحادية وفرض تماثل يتلبّسان العدمية للقضاء على الخصوصيات والتنوع.

بكلام آخر، نحن أمام وعي حقيقي مبكّر ليس فقط لتأبّي الأحادية العقيمة. بل نحن أمام ادراك، سوف يتعاظم ويتعمق باستمرار، بأن مقاومة التماثل لا يمكن ان تكون بالتقوقع، ولا بالانعزال، بل بالانفتاح والتحاور المخصبين.

وهذا هو العنصر الأساس الآخر للجواب عن سؤالنا المركزي المستوثق عن أسباب صمود الموارنة واستمرارهم. وأعني به هنا انتماء الكنيسة المارونية الى الكنيسة الكاثوليكية الجامعة في روما والتمسّك بهذا الانتماء ابداً، على قاعدة الخصوصية المارونية، بهويتها ورسوخها وتجربتها المشرقية بأساسيها المتلازمين: الروحي والزمني.

ان تواصل الوجود المسيحي لألفي سنة خلت في هذه الربوع مدين بجزء أساسي منه الى النظرة والعلاقات التي أحسن الموارنة المساهمة بارسائها مع بيزنطية والاسكندرية في حوار لاهوتي فكري اثمر من غير ريب المشرقية الانطاكية. ثم مع الإسلام والشرق العربي، بما أغنى الثقافة والحضارة على مستوى الانسانية بانجازات ثقافية وعلمية عربية باهرة. ناهيك عن العلاقات مع الغرب الذي ساهم الموارنة كذلك بنقل لاهوت الشرق وعلومه إليه. فضلاً عن مساهمتهم باطلاق مناخات من التفاعل والتحاور والتخاصب الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب وتعزيزها.

في سياق هذه العملية التاريخية المدى والزمن والابعاد، نهض الموارنة من موقعهم، الى جانب المجموعات المكونة لبيئة لبنان المجتمعية، لبناء ما سوف يترسّخ لاحقاً – وكسيرورة – دوراً متميزاً للبنان يكاد ان يكون هويته بالفعل. عنيت دور لبنان على مفترق الحضارات والجغرافيا والتاريخ. ليس بالمعنى السلبي بالطبع، ليس على قارعة طرقها ودروبها، بل في الصميم من جواهرها وانجازاتها التي لا تتفتّح، ولا تتجلّى، الا بمقدار ما تثبت قدرتها على الحوار.

دور الموارنة، هنا، ان يكون لبنان، وان يبقى وان يستمر مهداً وموئلاً ومناخاً دائم المواتاة لتعزّز هذا الحوار من غير انقطاع.

انني استميحكم عذراً ان ذكّرت، دائماً، بأن هذا الدور الماروني، تجذراً واستقلالية وانفتاحاً، ما كان ليقوم أصلاً ويستمر، لو لم يصمد الموارنة ويستمرّون بتجسيد ايمانهم المسيحي في خصوصية من التجسّد الحياتي والمجتمع ظلّ مضرب المثل.

فالموارنة المتمسكون بقيم الحرية والكرامة، انما تمكنوا من الصمود، رغم كل انواع المصاعب والتجارب وأشكال القهر والاضطهاد، بفضل تمسّكهم برسالة الانجيل وتعاليم المسيح. أما الترجمة الملموسة لشهادتهم هذه للسيد المسيح، وفي عزّ المجاهدة وجبه التحديات، فكانت عزوفهم عن طلب المكاسب واشكال الرفاهية والتنعم الدنيوية، وايثار التقشف والنسك والتزهد بقرار ايماني ودنيوي حاسم.

وهكذا استنبتوا الحب في الوعر والصخر، وحرسوا كرامة الايمان والانسان في دواخلهم في اعتى الظروف، وفي أغوار المحابيس.

ان كل تاريخ الموارنة اللاحق انطبع بهذه البداية. ومن ابرز معالمها، قل تباشيرها، ارتواء هذه الارض بدم الشهداء منهم. وارتواء الحقل بغرسهم. والبحر بآفاقهم واشرعتهم ومهاراتهم. وارتواء المجتمع بقيم الوداعة، والتفاني، والدعة، والصلابة.

اما من سمعني من قبل اردد – ويا طالما تمتعت بترداد – شهادة لامارتين بأجدادنا، وجذورنا، وقيمنا، فليستمع مرة اخرى.

وأما من لم يسمع بعد من اجيالنا الفتية والشابة بشهادة لامارتين، فأنا اردها هنا:

كتب لامارتين يقول في كتابه عن رحلته الى الشرق:

"اذا شاء المرء ان يتمثل أمام ناظريه، ما يمكن ان يتراءى للمخيلة من عهد المسيحية الناشئة الصافية، اذا شاء أن يرى البساطة، وحرارة الايمان الاصليّ، وطهارة الطبائع، والتجرد عند رسل المحبة، ونفوذ الكـــهنوت دونمـــا تجاوز، والسلطة دونما تسلّط، والفقر دونما استعطاء، والكرامة من غير كبرياء، والصلاة، والتيقّـــظ، والتقشّـــف، والعفّـــة واجتهاد الأيدي،

اذا شاء ذلك لوجب عليه ان يأتي عند الموارنة.

ان حياتهم هي حياة القرويّ النشيط. يعنون بالماشية او بدودة الحرير. يفتتون الصخور ويبنون بأيديـــهم الحيطـــان لجلـــول حقولهم. ينقّبون، يحرثون، ويحصدون.

أما بالنسبة لي، فاذا كان بوسع الانسان ان يُقْتَلَع تماماً من جذوره; اذا لم يتعيّن عليه ان يعيش حيث رسمت له العناية الإلهية مهده واللحد، ابتغاء خدمة مواطنيه ومحبته لهم; اذا شاء القدر يوماً أن أرغم على ذلك المنفى القسري، فلســـوف لا أجـــده بألطف ما يكون، في أي مكان، إلاّ في واحدة من هذه القرى الوادعة التي يقطنها الموارنة، عنـــد ســـفوح لبنـــان او علـــى منحدراته، لأعيش وسط بساطة هذه الشعب، وتديّنه، ورقته العطوفة.

إنّ أروع تحضّر يمكن لانسان ان يصادفه، وتضافر على تكوينه الدين والاخلاق عوضاً عن أي تشريع آخر، يسود هنا على امتداد البلاد التي يقطنها الموارنة; فأنت تتجوّل فيها وحدك ومن غير دليل، في النهار كما في الليل، دون ان تخشـــى مـــن سرقة او عنف; والجرائم فيها تكاد ان تكون مجهولة; فالغريب مقدّس لدى العربي المسلم، والأمر ذاته وأكثر ايضـــاً – اذا امكن – لدى العربي المسيحي; بابه مشرّع للغريب في كل ساعة; ينحر له جديه ليكرّمه; ويتخلى له عن حصيره ليجلســـه". (هذه المقاطع ترجمت الى العربية عن كتاب لامارتين: Voyage en Orient - 1832).

أجل، من زاوية هذه الشهادة كذلك، قل من هذه الينابيع البعيدة الدفق والغور والهدر، انكتب اصرار الموارنة الكنسي، فـــي الوقت ذاته، على ان يظل تاريخ مسيحيتهم تاريخ الاندماج العضوي بتاريخ الكنيسة المشرقية، والذي لا يقال اعتزازهم بـــه عن اعتزازهم بالارتباط بروما. واصرارهم على هذا الارتباط. ولنتذكّر بأن كل المحاولات المتعددة، المتنوعة، مـــن أجـــل "تغريبهم" انما باءت بالفشل الذريع. وخير مثال على ذلك سقوط الجهود الرامية الى فرض الطقوس اللاتينية، والالزام بـــاداء الصلاة باللاتينية. ولسوف نلتقي لاحقاً، بأمثلة أخرى على ذلك، في سياقات آتية، وعلى غير المســـتوى الكنســـي المباشـــر نفسه.

ليس من المبالغة في شيء أن نلاحظ بأن الكنيسة قد اكتسبت مع الموارنة، عبر الألفيتين معنى وأبعاد كونها شـــراكة بيـــن الناس، وليس مجرد طقس من طقوس الايمان، ولا مجرد مكان لممارسة شعائره. فالايمـــان المســـيحي بالتجسّـــد يتجلـــى خصوصاً بهذه الحيوية الحياتية الاجتماعية التي تنبثق، وتشع، من الموقع الذي يشغله كل من الكنيسة والدير المارونيين فـــي البيئة التي يقوم فيها على اساس التفاعل مع موجبات ومتطلبات تقدمها وتطورها، ورقيّها الروحي والمجتمعي في آن.

هذا التجسد الدنيوي العريق التجلّي في الرهبانية المارونية، تحكيه التداعيات والانجازات نفسها التـــي ارتبطـــت بالكنســـية وبالدير، فانسبغت على المحيط والمنطقة حيوية تربوية، وتعليمية، وثقافيـــة، وعلميـــة، وعمرانيـــة، ومهنيـــة، وزراعيـــة، واجتماعية.

يقول مارون عبود، اديبنا الكبير الذي عرف بنظرته النقدية وتأبّيه للنزاعات الطائفية والمذهبية:

"لولا وجود الدير لم تحلُ الاقامة للأهلين في قمم الجبال، ولولاهم (رهبان الدير) لم يُقِم الناس براحة وطمأنينة، بل لم يجرؤوا على السكن في أماكن هي عرضة لهجمات الأعداء... ولولاهم لم يصل لبنان الى حالته الحاضرة... وبفضلهم نمت القرى المجاورة الى ان صارت جنّة أمن ورخاء ترفرف اطيار الأمان والسلام فوقها وفوق جوارها..".

انه لمن السهل جداً ان نتصوّر الدير، مكان صلاة وعبادة، وربما كان من السهل كذلك ان نتصوره بؤرة اشعاع روحي وحتى علمي. لكنه ليس سهلاً – في اعتقادي – ان نتصوره قلعة للعقيدة ورائد رسالة اجتماعية كذلك، الا اذا كان مبتغاه، في الجوهر، الخدمة العامة المتجردة المنزهة، والتضحية والتفاني. فالدير الذي يسمو ويشمخ حال تأمّل وصلاة وتواصل مع الله تعالى، يتجلىّ في الوقت نفسه باعث عمران ونهضة. ومرّة أخرى، نستعيد هنا تعاليم المسيحية التي تؤسس الدير، كما الايمان المسيحي ذاته، فعل تجاوز دائم للذات. فالهيكل في ضمير المارونية انما هو من أجل الانسان، وليس، ولا يجوز ان يكون الانسان من أجل الهيكل. المؤمن وحده – كما يقول بولس الرسول – هو هيكل الله، قل هيكل الروح القدس الحالِ فيه.

وعلى هذا، كم هو مسيحي حقاً، وكم هو رائع حقاً، ان نلاحظ بأن انتشار الرهبانية المارونية في جميع بقاع لبنان، انما ساهم به كذلك، واستدعاه ايضاً، غير الموارنة من المواطنين اللبنانيين. فجوهر المسيحية، وجوهر المارونية بما هي مسيحية حقّة، ان تتنزه عن الهوى والغرض الذاتي والفئوي المحض. ان تكون في محبتها الدافقة، وفي تعاليمها، وفي الخير الذي تحضّ على القيام به، ان تكون للجميع، ومن دون استثناء. للسني وللدرزي وللشيعي وللجميع والجميع دائماً وأبداً. بل انها مسيحية بمقدار ما هي لغير المسيحيين في الآن.

فهل يحق لنا ان لا نتذكّر مثلاً دعوة الأمير علي بن الأمير فخر الدين للبطريرك مخلوف، وبعده دعوة الأمير احمد المعني للبطريرك اسطفان الدويهي، من أجل الاستقرار في مجدل المعوش؟

وهل يجوز ان ينسى او يتناسى الواحد منا مثلاً تقديم الامراء اللمعيين الدروز ممتلكات لهم للمؤسسات الرهبانية. أولم يقدّم الأمير سلمان ملحم حرفوش، في مثال آخر وليس الأخير بالطبع، قطعة ارض في بعلبك لبناء كنيسة مارونية؟

هذا هو سبب أساسي آخر من اسباب انتشار المارونية في لبنان. الا انه كون الكنيسة والدير داراً علمية، تربوية، مهنية، عمرانية، اجتماعية، معطاء، متفانية.

الا انه حضور الراهب كذلك بصفته المعلم المجتهد المتفاني. والحرفي اللبق الماهر. والفلاح او المزارع النشيط. لكنه، بعد ذلك كله، هل يحق لنا ان لا نرى الى هذا الانتشار الماروني في كل لبنان مغزاه الوطني بالمعنيين معاً: بمعنى المساهمة بتكوين هذا اللبنان، وبمعنى المساهمة العميقة الحاسمة بنسج العيش المشترك، سر لبنان الأول، وحقيقة كنهه، وميزة تفرّده، وجوهر رسالته؟

هذا التراث الماروني الذي راح يتكوّن، ويترسّخ، عبر مئات السنين تراثاً لبنانياً عريقاً، وهذا الموقف اللبناني العام المتفاعل بوطنية خلاّقة مع هذه المساهمة المارونية، ليس حادثة عابرة حصرت وبادت. دعوني اكتفي من ضمن العديد من الامثلة، تدليلاً على بقاء هذه الروحية واستمرارها في حاضرنا الراهن، بمثال الراهبات الانطونيات المارونيات في النبطية، اللواتي تمكنَّ من البقاء والصمود والعمل، بفضل احتضان الأهالي لهن ولرسالتهن، وسط اصعب الظروف واحلك الأيام، تحت وابل الفتن والنعرات واعتداءات المحتل الاسرائيلي ونيرانه، ورغم كل مآسي التشريد والتهجير التي تعرّض لها الأهالي في كل منطقة الجنوب.

الكلام على عوامل صمود الموارنة واستمرارهم – وتالياً على دورهم التاريخي – سوف يظل مبتسـراً، ومبتـوراً ان لـم يتوقف عند التراث التربوي والتعليمي والمعرفي والاكاديمي، والثقافي، الذي حرص عليه الموارنة حرصهم على حدقـات الأعيان وحبّات القلوب، فساهموا خلال ذلك باطلاق لبنان مشعلاً ومنارة، وبيئة تعليمية معرفية علمية ثقافية أكاديمية، رائدة. فتحوّل لبنان، على اساس من هذا الدور، ضرورة معرفية متأصلة في تاريخ بيئته ومحيطه، ضـرورة أكيـدة الحضـور ، ضرورة الشمس ذاتها، في المستقبل كذلك.

وهل يمكن أصلاً فصل تراث الموارنة الديني عن تراثهم العلمي؟

ربما يكون من المستحسن انعاش ذاكرتنا بصدد هذا الشأن الوطني الجليل. فلقد اشتهر الموارنة، منذ القدم، بتأسيس المدارس والمعاهد والجامعات. كما عرفوا بانتباههم الخصب الرائع الى الأهمية القصوى العائدة للمعارف العليا. وعلـى ايقاعاتـها وعطاءاتها المتنوعة. انكتب نبوغهم وتفوقهم نبوغاً وتفوقاً للبنان بأسره.

ان المدارس التي أسسوها في القرن السادس عشر والسابع عشر، في هذه الربوع الراسخة وانطلاقاً منها، لم تكـن مجـرد مدارس بل معاهد تدريس عال؟ حقيقية.

ولعلكم تتذكرون، معي، عبارة لويس الثالث عشر الشهيرة تجاه عطاءات يوحنا الحصروني Joannes Esronita في "الكوليـج دي فرانس": Savant comme un maronite. لم يكن يوحنا الحصروني المثال الفذّ الفريد والنابغة الأوحد. بل كان حلقة فـي سلسلة أولئك الرجالات العلماء الموارنة الكبار من لاهوتيين ومفكّرين وفلاسفة وموسوعيين، جسّدوا القيم المارونية الحقـة، روحياً ومعرفياً وحضارياً. ولا تزال هذه الاسماء الكريمة تقول لنا الكثير الكثير، ولسوف تظلّ تعني لنـا الكثـير الكثـير: جبرائيل الصهيوني، يوسف سمعان السمعاني، اسطفان عواد السمعاني، بطرس التولاوي، ابرهيم الحدثي، مرهج بن نمرون الباني، البطريرك سمعان عواد، البطريرك اسطفان الدويهي، البطاركة الثلاثة من آل الرزّي... واعذروني ان فاتتني أسماء – وهي قد فاتتني حتماً. ومعظم هؤلاء الأعلام المنارات تخرجوا من تلك الحاضرة العلمية الشهيرة التي أسسها الموارنـة: "المدرسة المارونية في روما".

واسمحوا لي أن أدعوكم الى النفاذ الى ما هو الجوهر في هذا الانجاز التاريخي. الى ما هو روحيته والنهج الـذي يحـضّ على ارسائه ومتابعته والتمسك به. وهذا من خلال المقطع الآتي من رسالة لأحد متخرجي المدرسة المارونية فـي رومـا، البطريرك اسطفان الدويهي، والتي وجهها الى امثاله اللبنانيين من تلاميذ تلك المدرسة، قائلاً لهم ببعد نظر واهتمام بالمعرفة والثقافة نادري المثال:

"انه ما خفي من علمكم ان الحصاد كثير والفعلة قليلون، وما غرّبناكم عن اهلكم وبلدانكم، ولا بعثنا بكم الى بلدان بعيدة بـواً وبحراً، إلاّ لتتعلموا العلوم الإلهية وتراجعوا تفيدوا غيركم وتتاجروا بالوزنات لتنالوا ضعف ارباحها. لأن الشرق مفتقر لمن يعلّمهم ثم ويعذّبهم...".

أما عن تلك الوزنات من التعليم والمعرفة فحدّث مارونياً ولا حرج:

فمدرسة عينطورة التي تأسست عام ١٧٣٤، يصفها احد ابنائها الأب جميل سقاوي بالاشارة الى ان "التلاميذ كانوا يفـدون الى عين طورا من كل الشرق. من مصر وقبرص وفلسطين وسوريا وتركيا وبلاد فارس والعراق".

وهل من داع لانعش الذاكرة ايضاً بمدرسة عين ورقة، "أم المدارس في لبنان وسوريا" بحسب التسمية المشـهورة الشـائعة التي اطلقت عليها، وكانت اشبه بالجامعة؟

لكنه في السياق ذاته، ثمة ظاهرة مرتبطة بتراث الموارنة لا سابقة لها على الاطلاق، لا في المنطقة ولا حتى في ما هو ابعد من المنطقة في بلاد الغرب، جديرة بأن تعرف، وبأن تبقى مثار اعتزاز وفخار حقيقيين. عنيت تجربة المجمع اللبناني الذي انعقد في دير سيدة اللويزة عام ١٧٣٦ برئاسة البطريرك يوسف ضرغام الخازن، وبحضور القاصد الرسولي الشهير يوسف سمعان السمعاني. ولننتبه الى انه لم تطلق عليه تسمية "المجمع الماروني" بل "المجمع اللبناني". وفي هذه التسمية ما فيها.

واسمحوا لي هنا بالتوقّف عند هذه التجربة الرائدة الحقّة، مستنداً في ذلك الى المحاضرة القيّمة – المرجع والتي قدّمها رئيس عام الرهبانية المارونية المريمية قدس الأباتي فرنسوا عيد في هذا الصدد في تشرين الثاني ٢٠٠٠ في جامعة سيدة اللويزة.

فلقد أقر هذا المجمع الزامية التعليم ومجانيته وتأمين معيشة التلاميذ الفقراء، وأورد حرفياً ما ورد في نص القرار:

"ان كان التلامذة ايتاماً او فقراً فلتقدّم لهم الكنيسة أو الدير ضروريات القوت" وفي حال تعذر ذلك على الكنيسة او الدير فـ"يُجمع لهم في كل يوم أحد من صدقات المؤمنين ما يفي بمعاشهم (المجمع اللبناني، الباب السادس ص٥٣٠).

فالتعليم اذن واجب مقدّس ومسؤولية الجماعة بأسرها.

ولنستمع الى الصيغة التاريخية، الثورية فعلاً، التي بلورها مجمعنا في هذا الصدد حيث يقول القرار بالحرف:

"فالتعلّم نور دون شك، لكنّ التعليم، ان لم يكن لتربية الاحداث، يظلّ ناقصاً. وهؤلاء "ان لم يحسن تثقيفهم وتشرب قلوبهم حب التقوى والعبادة، منذ حداثة سنهم، قبل ان تتولاهم ملكات الرذائل، لا يبلغون مبلغ الكمال ولا يثبتون في التعذيب البيعي".

لذلك، "نأمر بأن تقام المدارس في المدن والقرى والأديار الكبيرة، وان تُصرف العناية الى حفظها قائمة، فيتعلّم فيها صبيان تلك المدينة، او القرى المجاورة الأمور الضرورية" (المجمع اللبناني: الباب السادس ص٥٢٦ – ٥٢٧).

ويكمل اباء المجمع القرار الأهم في تاريخ المشرق بالقول: "ونحن نحض ونناشد، باحشاء يسوع المسيح، كلاً من المتولين رئاسة الأبرشيات والمدن والقرى والمزارع والأديار، جملةً وافراداً، ان يتعاونوا ويتضافروا على ترويج هذا العمل الكبير الفائدة، نريد بهم الاساقفة والخوارنة الاسقفيين والخوارنة ورؤساء الأديار فيعنون أولاً بنصب معلم حيث لا يوجد معلم ويدوّنون اسماء الأحداث الذين هم أقل لاقتباس العلم، ويأمرون آباءهم ان يسوقوهم الى المدرسة ولو مكرهين". (المصدر نفسه ص٥٢٩ – ٥٣٠).

أما في فرنسا، الرائدة في الغرب في مجال التعليم، فمجانية التعليم فيها لم تقرّ الا في ١٦ حزيران ١٨٨١، واما الزامية التعليم فلم تبصر النور بدورها، وفي فرنسا كذلك، إلاّ في ٢٨ آذار ١٨٨٢، أي بعد ١٤٦ سنة على قرار المجمع اللبناني.

وفي حين لم يقرّ في فرنسا أمر تعليم البنات إلاّ في آخر العام ١٨٨٠، دعا المجمع اللبناني الى تعليم البنات عندنا في العام ١٧٣٦، اي قبل فرنسا بـ١٤٤ سنة. داعياً بالحرف الى "ان يبذل معظم الجهد في تهذيب البنات في الأديار... ولذا يُطلب ان يعيّن لهنّ معلمات فاضلات يتحوطنهن بالعناية". (المجمع اللبناني ص٥٤٢).

في ريادة أخرى، جسّد المجمع اللبناني التوجه الديموقراطي للتعليم، وذلك بصورة بالغة الأهمية، تمثلت بقيام المدرسة التي تستقبل ابناء كل الطوائف وليس ابناء الموارنة وحسب. وابناء كل العائلات من سائر المراتب الاجتماعية، حيث كان يجلس في الصف الواحد التلامذة من ابناء الأمراء الى جانب التلاميذ من ابناء الفلاحين، ويتعملون معاً. وهذا ما حدث فعلاً، ترجمة لتوجهات المجمع وقراراته، في المدرسة التي افتتحت في دير القمر عام ١٧٥٢ في وقف من اربعة اقبية معقودة

قدّمته الست أمونة، ابنة الامير نجم شهاب حاكم الجبل من ١٧٣٠ الى ١٧٥٣، هبة "كاملة لرهبانات الحلبيين اللبنانيين الأحياء" – وفق ما جاء في مخطوطات دير سيدة اللويزة.

ومن جهة اخرى، فقد أقر المجمع التعليمي بلغات عدة هي العربية والسريانية واللاتينية، كما جرى التعليم في مراحل لاحقة بالايطالية والفرنسية كذلك.

كما وضع نص يؤكّد على الامتحان الاختباري لاختيار التلاميذ والطلاب المؤهلين للدراسة وينمّ عن نضج لافت ورائد في النظرة الى التعليم بمستواه وتنوعه حيث ورد حرفياً:

"اما ضعيفي الفهم فكان مرسوماً لهم ان يتمّوا دروسهم في خلال ثلاث سنوات" وعندها اي بعد السنوات الثلاث، يؤذن لهم ان يتوفّروا على تعلّم الصناعات، بحسب اختيارهم" (المجمع اللبناني ص٥٣٥ عدد٢).

وقبل المرحلة الثانية يقول آباء المجمع: "ثم اذا توسّم المعلمون في بعضهم مزيد الأهلية لتحصيل العلوم يرقّوهم" الى درس العلوم العالي..." (المجمع اللبناني ص٥٣٥ عدد٣ّ).

الى ذلك كله، حض المجمع تلامذة المدرسة المارونية في روما ومتخرجيها، على ان يؤلّفوا في اللغة العربية الكتب المدرسية الضرورية، وشجعهم على الترجمة الى اللغة العربية من اللاتينية. كما "أمر ادباء المجمع الرهبان بأن يعيشوا في كل دير نسّاخاً مجيدين حاذقين في صناعة الخطّ والكتابة، ويجمعوا نسخ الكتب البيعية من كل موضع وينسخوهم اياها ويودعوها مكتبة الدير تعميماً للفائدة" (المجمع ص٥٤٦ عدد٦).

وهكذا فان هذا المجمع اللبناني يشكل بحق ثروة تربوية معرفية ثقافية بذاتها، بالابعاد الشمولية البعيدة الافق التي في ضوئها اصدر قراراته التاريخية المذكورة.

ولعله يحسن بناء ان ننتبه الى ان هذه الانجازات التربوية والتعليمية الراقية قد تحققت قبل الارساليات التبشيرية والتعليمية الغربية التي قدمت لاحقا الى لبنان، وساهمت بتعزيز تطوره التربوي والمعرفي والعلمي والثقافي. بل ربما كان من شأن هذه الوقائع ان تحدو بنا الى القول ان هذه التجربة اللبنانية العريقة على هذا الصعيد حالت دون الوقوع في اشكال من "التغريب" لعملية التنشئة والتربية المرافقة لما قدمته تلك الارساليات في سياق انجازاتها التعليمية الكبرى.

على قاعدة نتائج هذا التراث الريادي في التعليم والمعرفة والعلم والثقافة وتداعياته وتراكماته، تجلى دور الموارنة التأسيسي الحاسم في النهضة العربية، وبخاصة في لبنان ومصر والمهجر، منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية خمسينات القرن العشرين.

ويحق للموارنة في هذا الصدد، ان يعتزوا بهذا الدور الذي ارسى تحرر لبنان من السيطرة العثمانية والاجنبية على مفهوم الانتماء العربي، وليس على اساس الانتماء الطائفي أو المذهبي.، وبهذا، كان للموارنة، ولا شك، موقع ريادي في تعزيز الحركة التحررية العربية في اوساط واسعة من طوائف لبنان الأخرى. وكان هذا هو المضمون الحقيقي فعلا للنهضة العربية الحديثة التي اخذت فيه غالب ظاهرها مظهر المحافظة على التراث واللغة والثقافة العربية، واحيائها وتطويرها.

هنا أيضا، هل كان لهذه النهضة العربية ان تبعث وأن تكون ما تبدت عليه، اذا ما جهلنا او تجاهلنا او الغينا، دور الاعلام الكبار من موارنة لبنان، وابداعاتهم التاريخية الطابع، تحرريا ولغويا وثقافيا، في صنع هذه النهضة، من امثال المعلم بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق ومارون النقاش وسليمان البستاني والبساتنة الآخرين، ومي زيادة وانطون الجميل وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وداود بركات وشبلي الملاط ونعوم مكرزل وايليا ابو ماضي وامين نخلة وعبد الله غانم

والياس ابو شبكة وفيليب حتي والاخطل الصغير (بشارة الخوري)، وبولس سلامة ومارون عبود وانطوان قازان، ويوسف ابرهيم يزبك وغيرهم وغيرهم...؟

على اساس من هذا التراث الكفاحي في التحرر والثقافة والابداع، هذا التراث اللاطائفي، العربي المضمون، كما تبدو مصطنعة، مختلفة، زائفة، تلك المحاولات التي رامت دمغ الموارنة بالتقوقع، وبالانعزال والانفصال عن بيئتهم العربية الطبيعية في التاريخ والجغرافيا والثقافة، وعن الجسم العربي الذي كانت سلامة صحته كما اعتلالها سلامة لهم وللبنان او اعتلالاً.

من جهة اخرى، فقد أقر المجمع التعليمي بلغات عدة هي العربية والسريانية واللاتينية، كما جرى التعليم في مراحل لاحقة بالايطالية والفرنسية كذلك.

كما وضع نص يؤكّد على الامتحان الاختباري لاختيار التلاميذ والطلاب المؤهلين للدراسة وينمّ عن نضج لافت ورائد في النظرة الى التعليم بمستواه وتنوعه حيث ورد حرفياً:

"اما ضعيفي الفهم فكان مرسوماً لهم ان يتمّوا دروسهم في خلال ثلاث سنوات" وعندها اي بعد السنوات الثلاث، يؤذن لهم ان يتوفّروا على تعلّم الصناعات، بحسب اختيارهم" (المجمع اللبناني ص٥٣٥ عدد٢).

وقبل المرحلة الثانية يقول آباء المجمع: "ثم اذا توسّم المعلمون في بعضهم مزيد الأهلية لتحصيل العلوم يرقّوهم الى درس العلوم العالي..." (المجمع اللبناني ص٥٣٥ عدد٣ّ).

الى ذلك كله، حض المجمع تلامذة المدرسة المارونية في روما ومتخرجيها، على ان يؤلّفوا في اللغة العربية الكتب المدرسية الضرورية، وشجعهم على الترجمة الى اللغة العربية من اللاتينية. كما "أمر ادباء المجمع الرهبان بأن يعيشوا في كل دير نسّاخاً مجيدين حاذقين في صناعة الخطّ والكتابة، ويجمعوا نسخ الكتب البيعية من كل موضع وينسخوهم اياها ويودعوها مكتبة الدير تعميماً للفائدة" (المجمع ص٥٤٦ عدد٦).

وهكذا فان هذا المجمع اللبناني يشكل بحق ثروة تربوية معرفية ثقافية بذاتها، بالابعاد الشمولية البعيدة الافق التي في ضوئها اصدر قراراته التاريخية المذكورة.

ولعله يحسن بناء ان ننتبه الى ان هذه الانجازات التربوية والتعليمية الراقية قد تحققت قبل الارساليات التبشيرية والتعليمية الغربية التي قدمت لاحقاً الى لبنان، وساهمت بتعزيز تطوره التربوي والمعرفي والعلمي والثقافي. بل ربما كان من شأن هذه الوقائع ان تحدو بنا الى القول ان هذه التجربة اللبنانية العريقة على هذا الصعيد حالت دون الوقوع في اشكال من "التغريب" لعملية التنشئة والتربية المرافقة لما قدمته تلك الارساليات في سياق انجازاتها التعليمية الكبرى.

على قاعدة نتائج هذا التراث الريادي في التعليم والمعرفة والعلم والثقافة وتداعياته وتراكماته، تجلّى دور الموارنة التأسيسي الحاسم في النهضة العربية، وبخاصة في لبنان ومصر والمهجر، منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية خمسينات القرن العشرين.

ويحق للموارنة في هذا الصدد، ان يعتزّوا بهذا الدور الذي ارسى تحرر لبنان من السيطرة العثمانية والاجنبية على مفهوم الانتماء العربي، وليس على اساس الانتماء الطائفي أو المذهبي.، وبهذا، كان للموارنة، ولا شك، موقع ريادي في تعزيز الحركة التحررية العربية في اوساط واسعة من طوائف لبنان الأخرى. وكان هذا هو المضمون الحقيقي فعلاً للنهضة العربية الحديثة التي اخذت فيه غالب ظاهرها مظهر المحافظة على التراث واللغة والثقافة العربية، واحيائها وتطويرها.

هنا أيضاً، هل كان لهذه النهضة العربية ان تبعث وأن تكون ما تبدت عليه، اذا ما جهلنا او تجاهلنا او الغينا، دور الاعـــلام الكبار من موارنة لبنان، وابداعاتهم التاريخية الطابع، تحرريا ولغوياً وثقافياً، في صنع هذه النهضة، من امثال المعلم بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق ومارون النقاش وسليمان البستاني والبساتنة الآخرين، ومي زيادة وانطون الجميل وجـــبران خليل جبران وأمين الريحاني وشبلي الملاط ونعوم مكرزل وايليا ابو ماضي وامين نخلة وعبد الله غانم والياس ابو شـــبكة وفيليب حتي والاخطل الصغير (بشارة الخوري)، وبولس سلامة ومارون عبود وانطوان قازان، ويوســف ابرهيــم يزبــك وغيرهم وغيرهم...؟

على اساس من هذا التراث الكفاحي في التحرر والثقافة والابداع، هذا التراث اللاطائفي، العربي المضمـــون، كمـــا تبـــدو مصطنعة، مختلفة، زائفة، تلك المحاولات التي رامت دمغ الموارنة بالتقوقع، وبالانعزال والانفصال عـــن بيئتـــهم العربيـــة الطبيعية في التاريخ والجغرافيا والثقافة، وعن الجسم العربي الذي كانت سلامة صحته كما اعتلالها سلامة لهم وللبنـــان او اعتلالاً.

هذا التوجه ليس متأخراً ولا طارئاً. انه عريق راسخ التجارب الملموسة التي اظهرت في العديد من الامثلة الحرص علـــى التلاقي الماروني الدرزي منذ أيام فخر الدين المعني واقامته وتطويره. والحرص المماثل الآخر على التلاقي مع امراء بني عساف السنة واقامته وتطويره. والحرص ايضاً على التلاقي الماروني الشيعي مع امراء بني حرفوش الشيعة ومشـــايخ آل حماده، فضلاً عن أوثق العلاقات مع أسر جبل لبنان وهذا ناهيك عن علاقات التشارك مع الطوائف والمذاهب المسيحية.

هذا هو النهج الماروني القاعدة. انه نهج ملاقاة الآخر في اختلافه، نهج التفاعل والتخاصب معه، وليس انتباذه او رفضـــه، اما خلاف ذلك فهو الاستثناء والشواذ.

وعلى سبيل المثال فان اصرار البطريرك الياس الحويك على منع اجتزاء لبنان وتصغيره، يعكس في مثاله، نهجاً وسياســـة ثابتين راسخين للبطريركية المارونية المصرّة على العيش المشترك بين الطوائف المكوّنة للبنان، وليس أبداً على "المعـــزل" المسيحي. وهذا الخيار الماروني المصيري الدائم بلغ مدى ابعد من التوازن الديموغرافي، ولم يأبه له بالأصل، من أجـل ان يتعزز توجه الجميع الى ترسيخ الصيغة التآلفية المسيحية – الاسلامية.

بهذا المعنى ذاته، ظلت البطريركية المارونية، ولا تزال، ولسوف تبقى دائماً، تنطلق في مواقفها وطنياً وليس طائفياً. ومـــن اعتبارها الموارنة خميرة للبنان العيش المشترك.

ومن هنا، فإن نظرة الموارنة الى وضعهم الخاص كطائفة والى المسائل العامة، كانت وما زالت تنطلق من زاوية نوعيـــة ثابتة، ألا وهي منطق الدولة الشمولي، وليس قطعاً من منطق فئوي بكونهم طائفة. ولذلك لم يشاؤوا ان يكون لـــهم مجلـــس ملّي خاص بطائفتهم المارونية. وهذا لأنهم لم ينظروا الى لبنان والى الطوائف الاخرى من زاوية طائفتهم، بل نظروا الـــى طائفتهم، والى الطوائف الاخرى من زاوية لبنان. وهو ما دأبت على التمسك به البطريركية المارونية التي طالمـــا تـــأبت سلوك المواقف الفئوية.

هذه النظرة اللبنانية التي ميّزت الموارنة في الماضي، وهي النظرة المسيحية الحقة في الاصل، يتعيّن علينا نحن الموارنـــة اليوم أن نحافظ عليها أيّما محافظة، وأن نتمسك بها أيّما تمسك في حاضرنا اللبناني الراهن.

في هذا السياق، فإن أحد أبرز الاستنتاجات التي تضعها امامنا قراءة تراثنا الماروني ان صمود الموارنة واستمرارهم إنّمـــا هما عائدان الى صلابة تمسكهم بالشهادة للمسيح، وبالانفتاح على الآخر والتحاور معه، وبالروح الاستقلالية المنيعة، الوثيقـة الاتصال بالتجذر بهذه الارض، وبهذه الهوية، وبهذه البيئة العربية.

الموارنة لم يصمدوا ولم يستمروا على مدى القرون بفضل حمل السلاح ولا باللجوء الى حماية اجنبية. إنما بقيم القدوة والمثال التي جسّدوها، ايماناً وكنيسة وتعليماً، وثقافة، ومجتمعاً. التي جسدوها بلبنانيتهم بكلمة، وليس ابداً بنزعة طائفية مارونية فئوية.

ولا يذهب الفكر هنا، بالقطع ابداً، الى اي نزعة بالتميز والاستئثار قد تخامر البعض. بل نحن نقصد هنا، تحديداً وحصراً، مساهمة الموارنة في صوغ الدور الحضاري والمفهوم الاستقلالي للبنان الحديث بارتباطه العضوي، في آن واحد بدورهم في المحافظة على الحضارة العربية وبعث التراث العربي، وفي التعبير عن الهوية العربية في مواجهة التتريك، وفي مواجهة الصهيونية التي حاولت ولا تزال تنفيذ مخططاتها في لبنان ليس فقط من اجل تدميره والغائه، بل باعتبار ذلك مدخلها وبابها المجرم الآخر الى بسط هيمنتها المطلقة علينا وعلى أشقائنا العرب من دون استثناء، وتحويل بلداننا الى دول تابعة للكيان الصهيوني.

دور الموارنة وفاعليتهم إنما يتجسدان بالسهر على المحافظة على تراثهم الماروني العريق ومتابعته بروحيته وبتطوره. ويكون ذلك بانخراطهم في دولة القانون Etat de droit وإقامتها لمصلحة الجميع من دون استثناء. قوة الموارنة وفاعليتهم كامنتان في ارادة الانصاف وتكافؤ الفرص والمساواة لجميع اللبنانيين، ولا تكون ابداً عبر دخولهم في متاهات تقاسم الوظائف والحصص والمنافع. فبالمحافظة على حقوق الجميع والمساواة بين جميع المواطنين، نحافظ على حقوق المسيحيين وموقعهم في الدولة. بل نحافظ على الدولة نفسها، التي كان للموارنة شرف ومسؤولية وعبء المساهمة برسم تكاوينها مشروعاً، ثم المساهمة بالانتقال بها من حيّز المشروع الى الواقع المحقق.

ليس من شأن النظرة الفئوية التنكّر للتراث الماروني وحسب، بل إن من شأنها اساساً القضاء على لبنان. لماذا؟ لأن لبنان مثال وقدوة للعيش المشترك. لأن لبنان "رسالة" قبل ان يكون مجرد دولة – على حد تعريف قداسة الحبر الاعظم له. امثولة – رسالة على صيغة مجتمعية تبنى على تعدّد الانتماء الديني، وتتفاعل فيها وتتخاصب العائلات الروحية المتنوعة. وتتفتح الحرية والعدالة والديموقراطية فيها على الحق بالاختلاف وقبول الآخر واحترامه.

في بلدان عديدة، تتحكم بها النظرة العنصرية او الاحادية الدينية، يعتبر الحق في الاختلاف امراً مداناً ومرفوضاً، بكل تعبيراته واشكال تجلياته في المجتمع. فاذا اتخذ المواطن موقفاً منتقداً او معارضاً للحاكم على سبيل المثال، تجري محاسبة هذا المواطن باعتباره منحرفاً، مشبوهاً، خارجاً على الدولة او الدين إن لم نقل خائناً. أما في لبنان، فالمواطن اللبناني، اسلامياً كان او مسيحياً، يمارس حقوقه كاملة، بما فيها حق المعارضة دون أن تلصق به تهمة الخروج على القيم والمقدسات.

هذه المناخات الراسخة من الحرية والديموقراطية، على ما يشوبها من بعض الثغر والنواقص والاخطاء في الممارسة، ويُشكى منها ولا يُكفّ عن المطالبة بتصحيحها، هذه المناخات باتت وهي تستمر، تراثاً لبنانياً عاماً يتمسك به، بالمحافظة عليه وتطويره، جميع اللبنانيين من جميع الطوائف.

وعليه، فإن الوفاق الوطني، بما هو طيّ صفحة الحرب وتداعياتها نهائياً، وبما هو مشاركة الجميع في القرار، هو في طليعة القضايا التي يطالب الموارنة بمتابعتها وترسيخها.

وهكذا، فمن الطبيعي جداً أن ينخرط الموارنة دائماً وابداً في الحقل السياسي، وأن يستمر حضورهم الفاعل المؤثر الحاسم الضروري الحيوي المطلوب في الحياة السياسية اللبنانية، التي لا تستقيم مطلقاً بغيابهم عنها وفي القلب منها. كان هذا شأنهم

دائماً، كما شأن الطوائف الاخرى. وهو اليوم يتأكد شأنهم اكثر من اي وقت مضى، بالمعنى الايماني المسيحي وبالمعنى الوطني اللبناني في آن واحد.

علينا أن ندرك دائماً بأنه لا انفصال ولا انقطاع في المسيحية ما بين التاريخ الدنيوي والتاريخ المقدس. وأن ملكوت الله يبدأ على الارض اولاً. أوَليس هذا ما أظهره لنا تاريخ الكنيسة المارونية في لبنان وانتشارها، وهي التي كان من تداعيات تجسّدها التلقائية سيرورة لافتة لأن تكون بمثابة مشروع وطن؟

لنصغ، هنا، الى الارشاد الرسولي الذي يخاطب اللبنانيين والمسيحيين منهم تحديداً بالقول الذي أورده هنا حرفياً:

"لا يجوز للعلمانيين المؤمنين قطعياً التخلي عن المشاركة في "السياسة"، اي عن النشاط الاقتصادي، والاجتماعي، والتشريعي، والاداري، والثقافي، المتعدد الشكل الذي يستهدف تعزيز الخير العام، عضوياً وعبر المؤسسات".

في ضوء قراءتي الموجزة هذه لدور الموارنة، يتعيّن علينا كما أرى ان نسائل أنفسنا عما اذا كنا نتابع فعلاً في حاضرنا الراهن روحية ذلك المسار التاريخي الذي اجتازه الموارنة وديناميته، ولا سيما في ظروف الصعاب والاوضاع المحفوفة بالمخاطر وإننا اليوم، كما تعلمون، نعيش اوضاعاً قاسية جداً، معقّدة جداً، تنطوي على أفدح المخاطر، وتتهدّد لبنان بمستقبله وحتى بوجوده.

وكما تعلمون، فإن قداسة الحبر الاعظم، بمبادرته التي كان أطلقها في ١٢ حزيران ١٩٩١، الى الدعوة لاجتماع خاص لمجمع الاساقفة (السينودس)، مخصص للبنان، أبدى قلقه على اوضاع الكنائس الكاثوليكية، ومنها المارونية وعلى مستقبلها في بلادنا بعد ست عشرة سنة من الحرب المدمّرة، وغداة احداث خطيرة سببت ولا تزال تتسبب بإشاعة اجواء من القلق والتخوّف، واليأس احياناً. ولقد دعا قداسة الحبر الاعظم بصفة خاصة العلمانيين الكاثوليك الى التساؤل من خلال هذا المجمع الراعوي، حول وفائهم لرسالة الانجيل وحول التزامهم بعيش هذه الرسالة بانسجام تام مع روحها، ولا سيما في مجتمعنا الذي عصفت به الاضطرابات خلال كل تلك السنوات من الحرب الأليمة وعقبها.

وفي الارشاد الرسولي الذي وجهه بعد السينودس، دعا قداسته الكاثوليك، والموارنة تحديداً، الى البحث عن أصدق السبل للشهادة على إيمانهم المسيحي، متوقفاً عند بعض من التوجهات الاساسية، أجدني مدفوعاً الى التذكير بها، ابتغاء إقدام كل فرد منا على مساءلة نفسه بمدى التزامه بالأخذ بها. ففي معرض دعوته الى التضامن مع العالم العربي، شدّد قداسته بالنسبة الى مسيحيي لبنان على – وأورد حرفياً –:

"ضرورة المحافظة على علاقاتهم التضامنية مع العالم العربي وتوطيدها. وأدعوهم الى اعتبار انضوائهم الى الثقافة العربية، التي ساهموا فيها مساهمة كبيرة، موقعاً مميزاً، لكي يقيموا، هم وسائر مسيحيي البلدان العربية، حواراً صادقاً وعميقاً مع المسلمين. إن مسيحيي الشرق الاوسط ومسلميه، وهم يعيشون في المنطقة ذاتها، وقد عرفوا في تاريخهم ايام عزّ وأيام بؤس، مدعوون الى أن يبنوا معاً مستقبل عيش مشترك وتعاون، يهدف الى تطوير شعوبهم تطويراً انسانياً واخلاقياً، وعلاوة على ذلك قد يساعد الحوار والتعاون بين مسيحيي لبنان ومسلميه على تحقيق الخطوة ذاتها في بلدان اخرى".

بهذا يذكّرنا قداسة الحبر الاعظم بأن دورنا لا ينحصر ضمن حدود لبنان، بل هو حاضر فاعل في بيئته العربية. فلبنان جزء لا يتجزأ من العالم العربي، وقضاياه المصيرية قضايانا.

وفي معرض حضّنا للانتباه الى ضرورة النهوض للرد على المآسي الاجتماعية التي خلّفتها الحرب، أكد قداسته على أنه بإمكان السلام في بلدنا – كما ورد في إرشاده الرسولي حرفياً –:

"أن يؤتي ثماراً في المنطقة كلها، ويتيح ايضاً لجميع المهجرين العودة الى مسقط رأسهم في ظروف ملائمة، بمساعدة مواطنيهم والأسرة الدولية. ففي العقود الاخيرة، ومن جراء الحرب، فرّت أسر لبنانية عديدة من الارض التي كانت تؤمّن لهم العيش ومن جراء بؤر النزاعات المختلفة في المنطقة، تهجّر ايضاً أناس آخرون. فبانتظار أن تتوافر امكانات عودتهم الى أراضيهم، يجب ألاّ يهملوا من دون مساعدة، وأن يعيشوا في لامبالاة الشعب الذي يعيشون في الغالب الى جانبه اوضاعاً من عدم الاستقرار والفقر، وفي لامبالاة وكالات المساعدات الانسانية، او السلطات الدولية، والمهجرون، في كل حال، يظلون كائنات بشرية لهم كرامتهم وحقوقهم التي لا تنزع".

ألا فليُسائل الواحد منا نفسه ووجدانه عما فعله، وعما يمكنه ان يفعل، على هذا الصعيد، متابعة لروحية تراثنا المسيحي الماروني في التشارك مع مواطنينا اللبنانيين جميعهم وليس الموارنة منهم فقط، بآلامهم بالسعي الى تخفيفها، وبآمالهم بالمساهمة بتحقيقها.

وفي معرض توقفه عند الازمة الاجتماعية الاقتصادية التي تنوء بثقلها على مجتمعنا اللبناني، دعا قداسته، وبالنص الحرفي الوارد في الارشاد الرسولي:

"جميع اللبنانيين الى متابعة اعمال فعلية من التضامن والتقاسم وتنشيطها، في كل مجالات الحياة الاجتماعية، مؤكدين بذلك الترابط الذي لا غنى عنه بين مواطني البلد الواحد، والمبدأ القائل بأن خيرات الارض معدة للجميع، وأن للذين لا شيء عندهم حق الافضلية".

ونبّه قداسته بأبهى صفاء مسيحي الى وجوب "ألاّ يستثنى أحد من شبكات العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. الفقراء والمهمّشون والمعوّقون جسدياً وعقلياً يجب أن يتمتعوا باهتمام أخوي وتضامن مطرّد".

نحن نعيش اليوم، مرحلة من أدق المراحل التي بلغتها الاوضاع في المنطقة، ومن أشدها خطورة على لبنان.

فالمتغيرات التي حصلت اخيراً داخل الكيان الصهيوني، والتي تعبّر عن مزيد من تفاقم ازماته وتناقضاته، تستلزم منا المزيد من التحوّط ضد اشكال التهديدات والاحتمالات، بالمزيد من تمتين جبهتنا الداخلية ورصّ الصفوف، لا سيما وأن مشروع التوطين الصهيوني الذي لا يعني غير زوال لبنان لا يزال في رأس الاهداف التي لن توقف اسرائيل المحاولات لفرضه علينا.

وجميعنا يعلم، من ناحية اخرى، أن أوضاعنا الاقتصادية صعبة ومقلقة. والبطالة متفشية. والهجرة مستشرية. ولا مندوحة امامنا الا مواجهة هذه التحديات جميعها بالتكاتف فيما ما بيننا جميعاً. والاّ باستلهام قيمنا ومثلنا المسيحية وما تمليه علينا الشهادة الحقّة للمسيح.

وفي خضم هذه الصعاب التي تحيق بلبنان، علينا أن ننهض الى دورنا بالعزيمة ذاتها التي نهض بها أجدادنا. بالصلابة ذاتها، بالتضامن ذاته. بالتفاني ذاته. ولعله يكون من الضروري في مكان، عدم اكتفائنا بما قد يشبه فعل الندامة اللفظي. بل علينا ان ننخرط بصورة ملموسة في تفعيل الأطر ومجموعات العمل، وتشكيلها حيث لم توجد بعد، الكنسي منها والاهلي، من أجل اتخاذ الاجراءات الملموسة التي توفّر المساعدات والخدمات والعطاءات في الميادين المتنوعة حيال مجتمعنا وشعبنا.

إننا مدعوون لمتابعة دورنا التاريخي. وإننا لقادرون على ذلك. فمعدن الموارنة تجوهر على مدى التاريخ وسط الشدائد وأعتى الصعاب.